الفاصلة القرآنية بين البلاغيين والنحويين

ياسر مصطفى عبد المنعم

ملخص البحث

هناك أكثر من اصطلاح للفاصلة عمومًا، أما الفاصلة القرآنية فتعريفها باعتبار الصوت هي آخر كلمة في الآية وهي حاملة الصوت المشابه الذي يحدث السجع- إن وجد- وباعتبار الدلالة نجد جملة الفاصلة وفيها تكون كلمة الفاصلة جزءًا من تركيب مستقل في نهاية الآية غالبًا للتعقيب أو التقرير... وفي الآيات القصيرة تكون الفاصلة جزءًا من جملة الآية وليست مستقلة كالآيات الطويلة.

ومن المحزن أن يفسر بعض علمائنا ما رأوه من اختلاف في كلمات بعض الفواصل بأنه ضرورة أدت إلى ذلك.

ومن خلال البحث تناولنا أهم الأمثلة التي ساقوها وتم الرد عليها وتوضيح بلاغة التغيير ... في جميع أشكاله من تقديم، أو تأخير، أو تعريف أو تنكير أو حذف أو زيادة الألف في وتظنون بالله الظنونا – فأضلونا السبيلا- وأطعنا الرسولا، ووجود حرف العلة في آخر الفعل تخشى على قراءة حمزة والتي تجزم الفعل، وإيثار المضارع تقتلون بدلًا من قتلتم في قوله تعالى: " ففريقًا كذبتم... ومخالفة الترتيب الزمني بين الأنبياء في قوله تعالى... والأسباط وعيسى وأيوب ويونس..... زبورًا " ولماذا بدأ بقصة ذبح البقرة قبل قتل النفس.

Summary

There is more than one convention for comma in general, as for the Quranic comma, it is defined as the sound is the last word in the verse and it is the carrier of the similar sound that occurs assonance, if any. As a signifier, we find a comma sentence in which the word comma is part of an independent composition at the end of the verse, often for comment or report... In short verses, the comma is part of the verse sentence and is not independent like long verses.

It is sad that some of our scientists interpreted what they saw as a difference in the words of some commas as a necessity that led to this.

Through the discussion, we discussed the most important examples that they gave and were answered and clarified the rhetoric of change ... In all its forms of submission, delay, definition, denial, omission or increase of a thousand in the belief of Allah, we believe – so they led us astray - and obey the messenger. And the presence of the vowel at the end of the verb is feared for the recitation of Hamza, which affirms the verb, and the altruism of the present tense you kill instead of killing in the Almighty: "so you lied... The chronological order of the prophets is violated in the words of the Almighty... And the tribes, Jesus, job and Jonah .. ..Zbora" and why he started with the story of slaughtering a cow before killing oneself.

تناسب الفواصل القرآنية: معنى ولفظًا وترتيبًا

الفاصلة لغة: يقول الراغب الأصفهاني: " الفصل: إبانة أحد الشيئين من الآخر، حتى يكون بينهم فرجة "[١]، ويقول ابن منظور" الفاصلة؛ الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام"[٢] أي في العُقد، وفي مقاييس اللغة: " الفاء والصاد، واللام" كلمة صحيحة تدل على تميُّز الشيء من الشيء وإبانته عنه". [٣]

ومما تقدم فالفاصلة لغة: هي الحاجز الذي يميز بين شيئين ويفصل بينهما، وفي الوقت نفسه النقطة التي يلتقي على ضفتيها هذان الشيئان.

الفاصلة القرآنية اصطلاحًا: للفاصلة عمومًا أكثر من اصطلاح حسب العلم أو الفن الذي تُستعمل فيه فهناك الفاصلة التي هي إحدى علامات الترقيم في الكتابة، وهناك الفاصلة في علم العروض، " وهي ثلاثة أو أربعة متحركات يليها ساكن"٤.

بيد أن اهتمامنا هنا بالفاصلة القرآنية، وقد سبق أن تناول الباحث موضوع الفاصلة في القرآن الكريم في رسالة الماجستير المعنونة ب " التماسك البديعي في تفسير التحرير والتنوير لسورة البقرة " وانتهينا إلى أن العلماء قد انقسموا إلى أربعة فرقاء:

١. الفريق الأول: نَفَى السجع من القرآن (ومنهم عيسى الرماني (ت٣١٤هـ) والقاضي أبو بكر الباقلاني ٤٠٣هـ) وأطلق على هذا الذي يظن أنه سجع فواصلَ.

٢. الفريق الثاني: أثبت السجع في القرآن الكريم كابن قيم الجوزية.

٣. الفريق الثالث: سمّى تماثل الآيات في الحرف الأخير سجعًا، وتقارب الحرف الأخير فواصل كابن سنان الخفاجي.

٤. الفريق الأخير: أطلق على المتقارب والمتماثل من الحروف مصطلح "فواصل"، ويمثل هذا الفريق الطاهر ابن عاشور. (٥)

وقد رجحنا رأي ابن عاشور في إطلاق مصطلح الفواصل بدلًا من السجع لأربعة أسباب هي:

١. إطلاق مصطلح فواصل أعم من السجع؛ لأنه يشمل المتقارب والمتماثل في الحروف.

٢. مصطلح "فواصل" فيه تأدب مع كتاب الله؛ لأن مصطلح السجع مأخوذ من هديل الحمام، كما أن في السجع أنواعًا مُحرمة من مثل سجع الكهان ومُدعي النبوة.

٣. القرآن نفسه وصف الآيات في أكثر من موضع بـ ‘‘مفصلات " و"فصلناه تفصيلاً " و" أحكمت آياته ثم فصلت ".

٤. أخيرًا: إطلاق مصطلح " فواصل" فيه خروج من الخلاف، فكل الفرقاء الأربعة، النافين للسجع، والمثبتين له ، والمفرقين بين السجع والفواصل ، والمطلقِين على المتقارب والمتماثل فواصل. أقول كلهم متفقون على تنزيه كلام الله عن التكلف والتقعر والتوعر فالخلاف بينهم لا يعدو إلا أن يكون خلافًا لفظيًا.

وأقدّم إشارة للفاصلة وردت في كتاب سيبويه وهي: "جميع ما لا يُحذَف في الكلام، وما يختار فيه ألا يُحذَف، يحذف في الفواصل والقوافي، فالفواصل كقوله تعالى: "**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**ۚ "[الفجر:٤] و " ؟ **مَا كُنَّا نَبْغِ** " [الكهف:٦٤] ، " **يَوْمَ التَّنَادِ**[غافر:٣٢]، " **الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**"[الرعد: ٩] (٦).

ومن تعريف سيبويه السابق وأمثلته رأى بعض العلماء أن مصطلح الفاصلة لا يقتصر على أواخر الآيات فحسب، بل يشمل أيضًا أواخر بعض الجمل التي ينفصل عنها الكلام في أثناء الآية، فعرفها أبو عمرو الداني بقوله: "كلمة آخر الجملة " وفرَّق بين الفاصلة ورءوس الآي بقوله: ‘‘أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل عما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية، وغير رأس آية، وكذلك الفواصل يكن رءوس آيٍ وغيرها، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية فالفاصلة تعم النوعين وتجمع الضربين". (٧)

ويظهر من تعريفات علمائنا للفواصل القرآنية أهميتها وعلاقتها بالمعنى واللفظ، يقول الرماني عنها ‘‘حروف متشاكلة في المقاطع توجب حُسن إفهام المعاني". (٨)

والقرآن الكريم بحر لا تنقضي عجائبه ولعل هذا مظهر من مظاهر إعجازه، يقول د/شبايك" إن من إعجاز القرآن أن يظل مشغلةً للعلماء والدارسين جيلًا بعد جيل رحب المدى، سخي المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه مبلغًا امتد الأفق بعيدًا وراء كل مطمح، وفوق كل طاقة، فسبحان من سلكه ينابيع في القلوب وصرفه بأبدع معني وأغرب أسلوب"! (٩)

وأكبر دليل على رأي د/ شبايك السابق موضوع الفاصلة القرآنية؛ فقد أُلّفت فيها مؤلفات كثيرة، ومع ذلك لم يوفوها حقها، وكلٌّ يأتي بجديد. يقول د/سامي عبد العزيز عن محدودية جهود عطاء الدراسات القرآنية والبلاغية في مجال علاقة الفواصل القرآنية بالوحدة السياقية للسورة" إن جهود علماء الدراسات القرآنية والبلاغية في هذا المجال تُعد محدودة، بالمقارنة مع الجهود التي بذلوها في مسائل جزئية مرتبطة بالفاصلة من مثل علاقة الفاصلة بآيتها أو بفواصل الآيات القليلة المجاورة لها". (١٠)

وعلى نفس المنوال نسج د/شبايك فأخذ على العلماء قديمًا وحديثًا عدم توفية الفاصلة حقها من الدرس فقال: ‘‘رغم اهتمام العلماء قديمًا وحديثًا بدراسة القرآن وعلومه وأوجه إعجازه ونظمه لا سيما الفاصلة إلا أنهم لم يوفوها حقها من الدرس". (١١)

وعلى نفس النهج نرى د/السيد خضير يقول: ‘‘ظاهرة الإيقاع اللفظي في القرآن الكريم لم تلق نصيبًا كبيرًا من الدراسة كأخواتها من الظواهر اللغوية الأخرى في القرآن، ربما لِتَحرُّج بعض الدارسين من المسألة أو الخوف من السجع المذموم في بعض أحواله". (١٢)

بيد أن الاهتمام بالإيقاع في آخر الجملة لم يقتصر على اللغة العربية وإنما هو ظاهرة لغوية عامة في كل اللغات، ففي تحليل لأحد أعمال الأديب الروسي "بوشكين" ظهر أن بدايات الجمل ونهاياتها عنده تميل إلى مقدار أعظم من الانتظام الإيقاعي منها في أواسط الجمل.".

وإذا كان الاهتمام بنهايات الجمل وانتظام الإيقاع فيها لا يختص باللغة العربية وحدها إلا أن اللغة العربية بطبيعتها لغة إيقاعية والمقصود بذلك أن فيها نغماً وتناغماً صوتياً مؤثرًا بصور شتى من جناس وسجع، وازدواج، وحسن تقسيم، وقافية. علاوة على أن اللغة العربية تتميز بطبيعة صرفية تعطيها مزيدًا من تنوع الإيقاع؛ فالعربية ذات طبيعة اشتقاقية لا إلصاقية، ففي كثير من اللغات الأوروبية تتكون الكلمة الجديدة من تركيب كلمتين منفصلتين تصيران بالتركيب مصطلحًا أو اسمًا جديدًا ويطلق عليه في اللغة

الإنجليزية Compound noun مثل Breakfast(الإفطار) فأصلها break يكسر أو يحكم، وFast الصوم، ويكسر الصيام أي يفطر. ومثلها Cafeteria مكونة من cafe قهوة، و eria منطقة.

" أما اللغة العربية فيتم التعبير عن المعاني والأحداث بصيغ متنوعة كأسماء الفاعلين والمفعولين وصيغ المبالغة...إلخ، وكلها تشتق من المصدر، بمعنى أن هناك أصلًا لغويًا تشتق منه كل هذه الألفاظ، وفق صيغ محددة، وهذه الألفاظ المشتقة قد تدور في مواضيع متقاربة من النص فتحدث ألوانًا من الجناس الذي هو ظاهرة إيقاعية" [١٣].

ومن أدق تعريفات الفاصلة ذلك التعريف الذي يجعلها قسمين:

١. باعتبار الصوت فتكون آخر كلمة في الآية وهي حاملة الصوت المشابه الذي يُحدث السجع – إن وجد – فالفاصلة بهذا الاعتبار تسمى كلمة الفاصلة.

٢. باعتبار الدلالة نجد جملة الفاصلة ، وفيها تكون كلمة الفاصلة جزءًا من تركيب مستقل في نهاية الآية ، وهي جملة تأتي للتعقيب أو تقرير مضمون الآية غالبًا وهذه الجملة هي التي يقع فيها التصرف النحوي والتنوع لبناء الفاصلة ، وقد لاحظ الدكتور المطعني[١٤] رحمة الله عليه ملاحظة قيمة وهي أن فواصل الآيات القصيرة تختلف عن الآيات الطويلة ؛ فالفاصلة في الآيات القصيرة جزء أساسي من الآية ودلالتها جزء من المعنى الأساسي الذي من أجله سيقت ومثّل لذلك بسورة الواقعة والرحمن والغاشية بخلاف الآيات غير القصيرة فتكون الفاصلة جملة كاملة.

والآن نحاول أن نستجلي موقف النيسابوري – بعد أن وضحنا في رسالة الماجستير موقف الطاهر ابن عاشور– من الفاصلة القرآنية، وهل كانت مجرد حلية لفظية أم ماذا كانت؟!

بداية نوضح أن السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن[١٥] قد أشار إلى أن ابن الصائغ الحنفي قد ألف كتابًا أسماه" إحكام الراي في أحكام الآي" وقد فُقِدَ كتاب ابن الصائغ، لكن السيوطي ذكر مجمل ملاحظات ابن الصائغ أو مخالفات قَدْ ارتكبت في أواخر الآيات–جل كتاب الله وتعالي عما يقول علواً كبيراً–يقول ابن الصائغ–" اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يُرتكب لها أمور من مخالفة الأصول، وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في أواخر الآي مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف وأربعين حكمًا." [١٦]

وقد تصدى كثير من العلماء للرد على ابن الصائغ ومن أولئك أ. د. عيد شبايك في كتابه "الفاصلة القرآنية بين المبني والمعني"، وأ. د. حسن طبل في كتابه "حول الإعجاز البلاغي للقرآن قضايا ومباحث"، وقد تناول الباحث بعضًا من هذه المآخذ وناقش موقف الطاهر ابن عاشور منها في رسالة الماجستير" التماسك البديعي في تفسير التحرير والتنوير لسورة البقرة " وبعد مرور سنين على هذه الرسالة ظهرت لنا ردود أخرى على ابن الصائغ-عفا الله عنه – ونحاول الآن بيان هذه الردود.

أولًا: إن من أهم الشروط المرعية في الفواصل القرآنية أن تكون ملائمة، ومتلائمة مع المعاني المقصودة ومنقادة لها وليس العكس، وبناءً على ذلك فإن كل من حدثته نفسه بأن الفاصلة إنما اختيرت – مادة أو صياغة – من أجل مراعاة الفاصلة فقط فهو واهم.

ثانيًا: ومن العجيب أن ينسب الزركشي [١٧] والسيوطي إلي الفراء بعض النصوص المنْكَرة والتي يُفهم منها أن الفاصلة قد خالفت المعني من أجل مراعاة الفاصلة كقوله : إن المعني في قوله تعالى ى: " **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**" [الرحمن:٤٦]؛ أي جنة واحدة، وإنما تُثني من أجل الفاصلة!!، وأن المعني في قوله تعالي:" **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ**"[القمر:٥٤] أي فى جنات وأنهار وإنما أُفرِدت مراعاة للفواصل" ، وقد نفي د/سامي بن عبد العزيز[١٨] وجود هذه الآراء المنسوبة للفراء في كتابه معاني القرآن ، فحقائق الأشياء لا تُغير من أجل الفاصلة.

ومن المحزن أن نجد كثيرًا من العلماء يُرجعون اختيار كلمة ما في الفاصلة إلي ضرورة الفاصلة فقط كالبيضاوي وأبي حيان الأندلسي، ومن العجيب أن نجد من ينبه على أن كلمة الفاصلة تختار من أجل المعني ثم اللفظ ونجدهم في مواضع أخرى يعللون اختيار كلمة الفاصلة من أجل اللفظ فقط بل وعقدوا أبوابًا للمخالفات التي وقعت في أواخر الآيات من أجل استقامة الفاصلة!

وقد أشار البقاعي إلى هذا التناقض الذي وقع فيه بعض العلماء في حديثهم عن الفاصلة وخطَّأ من علل اختيار كلمة في الفاصلة من أجل الوزن فقط فقال:" إن كثيرًا من الآيات فسرها على غير المراد منها – قطعًا – أكابرُ العلماء، فعلى الإنسان إذا خَفي عليه أمرٌ أن يقول لا أعلم، ولا يُظن أنهُ رُتب شيء من هذا الكتاب العزيز لأجل الفواصل فذلك أمر لا يليق بكلام الله تعالى. وقد نفى-سبحانه – عن هذا القرآن المجيد تصويب النظر إلى السجع، كما نفى عنه الشعر؛ فالله تعالي قال:" **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ(42)** " [الحاقة: ٤١ – ٤٢]، فكما أن قول الشاعر إتيانه بالكلام موزونًا. فكذلك قول الكاهن: إتيانه بالكلام مسجوعًا، والقرآن ليس من هذا ولا من هذا، وإن وقع فيه كل من الأمرين فغير مقصود إليه، ولا مُعول عليه، بل لكون المعني انتظم به على أتم الوجوه، فيؤتى به لذلك"[١٩]

ورأي البقاعي السابق كان في معرض تعليله تقديم كلمة "رءوف" على كلمة "رحيم" في قوله تعالي: " **بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** " [التوبة: ١٢٨] وأثبت خطأ من قال إن التقديم من أجل مراعاة الفاصلة فقط، وذكر أن الرحمة أعم من الرأفة؛ فالرأفة أي شدة الرحمة لمن له منه عاطفة، وصلة، أما الرحمة فهي أعم، والدليل على أن التقديم لم يكن من أجل الفاصلة قوله تعالي في سورة الحديد" **وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً** " [الحديد: ٢٧] فقدم الرأفة علي الرحمة مع أنها ليست بفاصلة.

الرد على المخالفات التي ذكرها ابن الصائغ

صحيح أن البلاغيين والنحويين في القرون الأولى قد استخلصوا صورًا منطقية مفترضة لفن القول، كانت ثمرة تتبع النظام العام الشائع في الكلام، وفي هذه الصور تم بناء القواعد المحددة، بيد أنهم لاحظوا خروج بعض الأمثلة على هذا النظام العام ومن ثَم حاولوا إيجاد تعليل منطقي مناسب لكل مثال.

ومن الملاحظ أن علماءَنا لم يضموا هذا الخروج تحت باب واحد، وإنما سموا كل حالة باسمها كقولهم استعمال " فاعل" مكان " مفعول "كقوله تعالي: " **خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ** " [الطارق: ٦] والأصل مدفوق، وإحلال "مفعول" مكان " فاعل"كقوله تعالي: " **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** " [الاسراء: ٤٥] والأصل حجابًا ساترًا وإحلال المفرد محل المثني كقوله تعالي: " **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ**" [طه: ٤٥] والأصل فتشقيا وإحلال المفرد محل الجمع كقوله تعالي: " **وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** [الفرقان: ٧٤] وهذه الأمور ليست قاصرة علي الفاصلة فقط خلافًا لما ذكره ابن الصائغ حيث قصر ذلك علي الفاصلة، كقوله تعالى:" **نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا** [الحج: ٥] والمحدثون يدرسون هذه الأمور تحت مصطلح Replacement (الاستبدال).

أولاً زيادة حرف لأجل الفاصلة:

يرى الزركشي أن الألف في قوله تعالي: " **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** " [الاحزاب: ١٠] وكذلك في قوله تعالي: " **فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** " [الاحزاب: ٦٧]، " **وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا** " [الاحزاب: ٦٦] قد زيدت في الكلمات" الظنونا – السبيلا – الرسولا " من أجل الفاصلة وكذلك ذكرها ابن الصائغ قبله. وعلي نفس الضرب زلت بعض أقلام المفسرين فعلَّلوا زيادة الألف من أجل الفاصلة فقط ، ينقل صاحب حدائق الروح والريحان عن أبي السعود فيقول: " وهذه الألف في "الرسولا" والألف التي ستأتي في" السبيلا " هي الألف التي تقع في الفواصل، ويسميها النحاة ألف الإطلاق ؛ لمد الصوت بها ؛ لأن أواخر آيات هذه السورة الألف والعرب تحفظ هذا في خطبها وأشعارها "[٢٠] ونجد تعليل البيضاوي لزيادة الألف في " الظنونا " بقوله" والألف مزيدة في أمثاله تشبيهًا للفواصل بالقوافي" [٢١]وقد قال الزمخشري مثل ذلك ، وأنشد بيتًا

لجرير فقال في زيادة الألف في الظنونا وأمثالها"زيادة الألف في الوقف زادوها في الفاصلة كما زادوها في القافية فقال : " أقلي اللوم عاذل والعتابا "[٢٢] وكذلك " الرسولا " و" السبيلا "، وكلام الزمخشري هذا مردود عليه من أكثر من وجه. وكذلك قال الطاهر ابن عاشور فقال:"وكتبت " الظنونا " في الإمام بعد النون (الصواب بألف بعد النون ولعلها سقطت سهوًا)، زيدت هذه الألف في النطق للرعاية على الفواصل في الوقوف؛ لأن الفواصل مثل الأسجاع تعتبر موقوفًا عليها؛ لأن المتكلم أرادها كذلك. فهذه السورة بنيت على فاصلة الألف مثل القصائد المقصورة، كما زيدت الألف في قوله تعالي: " **وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا** " [الاحزاب: ٦٦] وقوله: " **فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** "[الاحزاب: ٦٧] "، وعلل إسقاط الألف وصلًا بأن رءوس الآى ليست بقوافٍ عند من أسقطها، وأضاف بأن هذا اختلاف من قبيل الاختلاف في وجوه الأداء لا في لفظ القرآن"[٢٣].

وللرد علي ما سبق نقول إن الله نفى كون القرآن شعرًا " وما هو بشاعر" ونفى كون القرآن نثرًا فقال" وما هو بقول كاهن" فقط، أولًا، وقد نقل الزركشي عن الزمخشري في كشافه القديم" لا تحسن المحافظة علي الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سردها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه فأما أن تُهمل المعاني ويهتم بتحسين الألفاظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة" [٢٤]ومن هنا يظهر التناقض في كلام الزمخشري فتارة يُفسر سبب التغيير بمراعاة الفاصلة فقط ، وتارة يقول إن مراعاة الفواصل وحدها لا يكفي وليس من البلاغة في شيء.

علاوة على أن البيت الذي استشهد به الزمخشري على زيادة الألف لم يكن قافية والبيت لجرير يقول فيه: (من الوافر)

أَقِلّي اللــوَمَ عاذِلَ وَالعِتابا وَقولي إن أَصَبتُ لَقَد أَصابا

إذا غَضِبَت عَلَي بَنو تَميمٍ وجدت الناسَ كُلُّهُمُ غِضابا

بيد أن الآلوسي [٢٥] استشهد لأبي عمرو في كتاب الألحان بقوله:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

وترى أيضًا سببًا آخر لرد الاقتصار على مراعاة الفاصلة فقط في زيادة الألف في" الظنونا – الرسولا – السبيلا " وهو أن آيات سورة الأحزاب ثلاث وسبعون آية كلها تنتهي بحرف الألف ما عدا الآية الرابعة تنتهي بحرف اللام وهي قوله تعالي : " **مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** " [الاحزاب: ٤] ولو كانت زيادة الألف بسبب الفاصلة فقط، فلِمَ لَمْ

تُوضع في كلمة السبيل هناّ؟ ومن العجيب أن كلمة السبيل في نهاية الآية الرابعة هي إحدي الكلمات الثلاث التي زيدت فيها الألف في سورة الأحزاب " الظنونا"-" الرسولا " – " السبيلا ".

ونرى رد البقاعي الحاسم معللا زيادة الألف في كلمة " الظنونا " بكثرة هذه الظنون وتشعبها بحسب قوة الإيمان وضعفه، فهناك أنواع من الظنون أما بالنسبة للأشخاص فواضح وذلك بحسب قوة الإيمان وضعفه، وأما بالنسبة إلى الشخص الواحد فحسب تغير الأحوال، فتارة يظن الهلاكَ الضعيفُ وتارة النجاة؛ لأن الله قادر علي ذلك، ويظن المنافقون ومن قاربهم من ضعفاء القلوب ما حكى الله عنهم.. وزيادة الألف إشارة إلى اتساع هذه الأفكار وتشعب تلك الخواطر". (٢٦)

أما زيادة الألف في"الرسولا" و"السبيلا" فكانت تعظيماً للرسول (ﷺ) وللسبيل يقول البقاعي: " وزيادة الألف في" **وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا** " [الاحزاب: ٦٦] إشارة (٢٧)علي إيذائهم بأنهم يتلذذون بذكره ويعتقدون أن عظمته لا تنحصر" وعلل زيادة الألف في "السبيلا" بقوله:" وقراءة من أثبت الألف مشيرة إلى أنه سبيل واسع جدًا واضح وأنه مما يتلذذ بذكره ويجب تفخيمه" (٢٨) ونري هذا الكلام القيم والذي يربط بين اللفظ والمعنى قد أثر عند د/ محمود شمس في برنامج سحر البيان فقال ما خلاصته أن الألف في الكلمات الثلاث حرف مبنى، وهناك قاعدة تقول: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فهناك فرق بين فَتَح، وفتَّح؛ فالأول يدل على مجرد الفتح، والثاني المشدد يدل على فتح الباب على مصراعيه، ومن هذا المنطلق وجدنا أن قوله تعالي:" **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** " [الاحزاب: ١٠] ورد في سياق غزوة الأحزاب ونجد أن الذين كانوا مع النبي (ﷺ) من الصحابة كانوا علي أنواع من حيث العقيدة فمنهم المؤمنون الصادقون" **مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** " [الأحزاب: ٢٣] ومنهم المنافقون، يقول تعالي" **يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ** " [الاحزاب: ١٢] ومنهم الذين في قلوبهم مرض، يقول تعالى:" **وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** " [الاحزاب: ١٢] ، أي ضعفاء الإيمان الذين يسيرون مع الفائز فمن الممكن أن يسيروا خلف المنافقين وبالطبع جاءت القبائل من قريش وغطفان وغيرها واليهود من الخلق والمنافقون والذين في قلوبهم مرض في صفوف المؤمنين، والله يصور هذا الموقف بقوله تعالي: " **إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ** " [الاحزاب: ١٠] هم قريش وغطفان، والقبائل التي جاءت لتحارب المؤمنين . يقول تعالي: " **وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ** " [الاحزاب: ١٠] هم اليهود. يقول تعالي: " **إِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ..... وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا**ۜ ".

" [الأحزاب: ١٠]، فالألف هنا لتؤكد كثرة الظنون، وتنوعها.... أما الألف في" الرسولا – السبيلا " فصراخ وعويل أهل النار، يقول تعالي: " **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ**

أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ " [الاحزاب: ٦٦]، الألف ها هنا تعطيك صورة لهؤلاء أهل النار عندما يصرخون كما قال تعالى في سورة فاطر: " **وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا** " [فاطر: ٣٧] والاصطراخ افتعال أيضًا " **وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠** " [الاحزاب: ٦٧]، فالألف تؤكد صراخ وعويل أهل النار عندما يصطرخون في جهنم .(٢٩)

ولم تقتصر زيادة الألف علي الفاصلة فقط ، ومن ذلك ما ذكره د/ المطعني (٣٠)ومثل بأمثلة منها زيادة الألف في كلمة "لأذبحنه" في قوله تعالى: " **عَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** " [النمل: ٢١]، وفي الفعل "ييئس" من قوله تعالى: " **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** " [يوسف: ٨٧]، و في كلمة" لشايء" من قوله تعالى: " **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا** " [الكهف: ٢٣،٢٤]، و كلمة "تبوأ" من قوله تعالى: " **إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي**" [المائدة: ٢٩]، وكلمة "تنوأ" من قوله تعالى: " **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** " [القصص: ٧س٦]، وكلمة "وجائ" من قوله تعالى: " **وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ** " [الفجر: ٢٣]، و"سلاسلًا " في قوله تعالى: " **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا** " [الإنسان: ٤]، و" قواريرا " في قوله تعالى: " **وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا** "" [الانسان: ١٥]، وذكر السبيلا والرسولا، والظنونا وعلل الزيادة بقوله" الأصل في الرسم قبل الزيادة : الرسول- فجيء بالألف بعد اللام والمعني الذي رمز إليه بهذه الزيادة هو شدة التحسر والندم ؛ لأنهم تمنوا طاعة الله ورسوله بعد فوات الأوان؛ لأنهم قالوا هذا الكلام وهم في النار، وشبيه بهذه الزيادة في قوله تعالى: " **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** " [الاحزاب: ٦٧] ، هذا الكلام صدر منهم عن طريق الشكوى فزيدت الألف كاشفة عن الأسى الشديد الذي يعتمل في قلوبهم" واكتفينا بتعليل د/المطعني لزيادة الألف في " الرسولا – السبيلا" ففي الجزء دلالة على الكل .

من خلال كل ما سبق نستطيع القول إن من قصر سبب زيادة الألف على الفاصلة فقط لم يكن محقًا ؛ فالألف زيدت في درج الكلام " قواريرا " ، وسورة الأحزاب بها كلمة " السبيل في نهاية الآية الرابعة ولم توضع الألف كما حدث في آخر السورة مع نفس الكلمة " فأضلونا السبيلا "، وكل فواصل السورة التي زيدت فيها الألف عن أهل النار وهم يمدون أصواتهم في النار و(الرسولا) بالألف هو صوت الباكي أما في أول السورة فليس هناك عذاب فجاءت على حالتها "السبيل" و"ليست "السبيلا"، فهي تصور الحالة

الطبيعية من اصطراخ فجاءت الألف تعبيرًا عن حالهم وهم يصطرخون في النار في كلمة "الرسولا" في أواخر السورة.

وكذلك "الظنونا" تسمي "الألف" في النحو ألف الإطلاق كلمة "ظنون" إذا انتهت بساكن يسمي مقيدًا، الظنونا كثيرة ومتشعبة واختلفوا وتشابكوا فاختلفت الظنون، ولذا جاءت بالإطلاق (الظنونا) وجب استخدام، الألف لإطلاق الظنون. (٣١)

علاوة على كل ما سبق فإن زيادة الألف ليست بدعًا، بل هي على نظام اللغة العربية؛ فقد ذكر أستاذنا د/شبايك أن الوقوف بالألف لغة أهل الحجاز كما ذكر الفراء". وأهل الحجاز يقفون بالألف وقولهم أحب الينا لاتباع المصحف، ولو وصلت بالألف لكان صوابًا؛ لأن العرب تفعل ذلك وقد قرأ بعضهم بالألف في الوصل والقطع."(٣٢). فسبحان من هذا كلامه!

ومن مواضع الزيادة التي ذكرها ابن الصائغ زيادة الياء في قوله تعالى:" **لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ** " [طه: ٧٧]، وهذا الموضع وقع فيه لبس كبير حتى على أهل اللغة، وذلك لأن المأخذ الذي اعترض عليه ابن الصائغ هو قراءة حمزة وليست قراءة عاصم؛ لأن القرَّاء السبعة ما عدا حمزة يقرءون" لا تخافُ دركًا ولا تخشى" وهذا ليس فيه أي مخالفة فالفعل الأول "تخاف" مرفوع بعد لا النافية، والفعل تخشى مرفوع مثله فلا إشكال في ذلك يقول العكبرى" وأما (لا تخشى) فعلى القراءة الأولى يقصد رفع "تخاف" وهي قراءة الجمهور، وهو مرفوع مثل المعطوف عليه أما الإشكال ففي قراءة من جزم وقرأ " لا تخفْ " وهي قراءة حمزة ، وفي توجيه بقاء حرف العلة في "ولا تخشى" ثلاثة أوجه **الأول** : أن تكون جملة "ولا تخشى" حالًا والتقدير وأنت لا تخشى". **الثاني**: وقيل الألف في تقدير الجزم شبهت بالحروف الصحيحة، **الثالث** وقيل نشأت لإشباع الفتحة ليتوافق رءوس الآي (٣٣) وبذلك يبطل التعليل الذي ذكره الدكتور رمضان عبد التواب حيث علق على الآية بأن بقاء حرف العلة في "ولا تخشى" على أساس أن لا نافية مثل التي سبقت " تخاف"، يقول رحمه الله" ولست أرى هنا ما يمنع من جعل " لا " نافية وليست ناهية بدليل أنها معطوفة على "لا" النافية في قوله "لا تخاف" (٣٤).

ونقل هذا التعليل أ. د عيد شبابيك (٣٥) على أساس أن اعتراض ابن الصائغ في بقاء الألف في"لا تخشى" مع رفع الفعل تخاف، وليس هذا المقصود من كلام ابن الصائغ وإنما يقصد بقاء الألف في"ولا تخشى" في قراءة من يجزم "تخاف" فنصبح "لا تخف" ولا خلاف في كون"لا" قبل "تخف" أنها ناهية جازمة، ولكن الإشكال في بقاء الألف في "لا تخشى" مع جزم "تخاف".

وذكر النيسابوري ثلاثة حلول لذلك فقال:" وفي "لا تخشى" إذا قرئ "لا تخفْ" أوجه الاستئناف أي وأنت لا تخشى، وجوّز في الكشاف أن يكون الألف للإطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى:" **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** "[الاحزاب: ١٠]، أو أن يكون كقول الشاعر:

وَتَضحَكُ مِنّي شَيخَةٌ عَبشَمِيَّةٌ كَأَن لَم تَرى قَبلي أَسيراً يَمانِيا"

أراد "لم تر" قلت لعل هذا إنما يجوز في الضروري ولا ضرورة في الآية [٣٦].

ونرى أن النيسابوري لم يرض بالضرورة في القرآن–جل كلام الله – ولكن فاته أن جزم معتل الآخر بالسكون هو لغة عبس.

والآلوسي يذكر الأوجه الثلاثة السابقة في توجيه عدم حذف حرف العلة من "ولا تخشى" في قراءة حمزة بجزم"لا تخف" فقال:" وأما على قراءة الجزم فقيل هو استئناف أي وأنت لا تخشى وقيل عطف على المجزوم والألف جيء بها للإطلاق مراعاة لأواخر الأي كما قيل في قوله تعالى:" **فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** "[الاحزاب: ٦٧] و" **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** "[الاحزاب: ١٠] أو هو مجزوم بحذف الحركة المقدرة كما في قول"رؤبة بن العجاج":

إذا العَجُوزُ غَضِبَتْ فَطَلِّقْ وَلا تَرَضّاها وَلا تَمَلَّقْ

وابن عاشور وجه قراءة حمزة في بقاء الألف في "ولا تخشى" إما لمراعاة الفاصلة أو على الاستئناف فقال:" وأما قوله ولا تخشى (ولا تخشى) فالإجماع علي قراءته بألف في آخره فوجه قراءة حمزة فيها أنه قرأ بجزم المعطوف عليه، أن تكون الألف للإطلاق لأجل الفواصل مثل ألف " **فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**" [الاحزاب: ٦٧] وألف " **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** "[الاحزاب: ١٠] أو أن تكون الواو في قوله" ولا تخشى" للاستئناف لا للعطف"[٣٧].

وأضاف صاحب حدائق الروح والريحان أن الأعمش وابن أبي ليلى مثل قراءة حمزة بالجزم في"ولا تخف"[٣٨].

وقد أبطلنا في الصفحات السابقة شبهة من قال الألف للإطلاق من أجل التناغم الصوتي فقط في"الظنونا – الرسولا – السبيلا"، وبالتالي فلا يجوز أيضًا القول بالضرورة في "ولا تخشى" في قراءة من جزم"لا تخف".

وأما التوجيه بأن"ولا تخشى" الواو فيها للاستئناف وليست للعطف فهذا أمر مقبول، وأحسن منه أن بقاء الألف وعدم حذفها في حالة الجزم لغة من لغات العرب يقول صاحب النحو الوافي:" هناك لغة

تجيز إبقاء حرف العلة في آخر المضارع المجزوم؛ فيكون مجزومًا وعلامة جزمه حذف علامة الإعراب المقدرة على حرف العلة قبل مجيء الجازم وبهذه اللغة ورد قول قيس بن زهير العبسي:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالأَنْبَاءُ تَنْمِي بِمَا لاَقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيادِ

وقول الآخر:

هَجَوْتَ زَبَّانَ ثُمَّ جِئْتَ مُعْتَذِرا مِنْ هَجْوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو وَلَمْ تَدَعِ

وبتلك اللغة وردت القراءة"يقصد حمزة" في الآية الكريمة من سورة طه، يقول تعالى:" **فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ** "[طه:٧٧] حيث بقيت الألف في آخر الفعل:"تخشى" مع أنه مجزوم بسبب العطف على المجزوم (وليس لا الناهية)". [٣٩]

والباحث لا يرضى أن تُفَضّل قراءة متواترة على قراءة متواترة ؛ فالكل كلام الله ، والقرآن يحكم علي اللغة ، وليست اللغة هي التي تحكم على القرآن ، ومما يؤكد صحة جزم المضارع المعتل بالسكون – إضافة إلي هذه الآية – قول الحق سبحانه و تعالي: " **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ** "[يوسف:٩٠] في رواية قنبل عن ابن كثير أحد القراء السبعة بإثبات الياء في آخر يتقي، وإسكان الراء في "يصبر" وقفاً ووصلًا ومن المعلوم أن يتقي ليست بفاصلة يقول أبو العباس القسطلاني في لطائف الإشارات لفنون القراءات" وقرأ "يتقي" بإثبات الياء وصلًا ووقفًا قنبل"[٤٠].

ويؤيد ما قلت ما ذكره العلامة محمد عبد الخالق عضيمة تحت عنوان تلحين القراء، واعتبر أن "تلحين القراء"[٤١] جملة آثمة حمل لواءها نحويو البصرة ثم تابعهم غيرهم من اللغويين والمفسرين ومصنفي القراءات وذكر أمثلة على ذلك ورد عليها بأدلة كثيرة؛ وعلل التجرؤ على نقد القراءات بأمور منها: النظر إلى الشائع من اللغات، والغفلة عن غيره (كلغة عبس التي تجيز الجزم لمعتل الآخر بالسكون) ومن ردود د/عضيمة [٤٢] على منتقدي القراءات:

١. القراءة لا تتبع العربية، بل العربية تتبع القراءة؛ لأنها مسموعة من أفصح العرب بإجماع وهو نبينا محمد (ﷺ) ومن أصحابه ومن بعدهم.

٢. ليس قول النحويين بحجة عند الإجماع، فمن القراء جماعة من النحويين فلا يكون إجماع النحويين حجة مع مخالفة القراء لهم، ولو قدر أن القراء ليس فيهم نحوي فإنهم ناقلون لهذه اللغة، وهم مشاركون النحويين في نقل اللغة، فلا يكون إجماع النحويين حجة

دونهم، وإذا ثَبَتَ ذلك كان المصير إلى قول القراء أَوْلَى، لأنهم ناقلون عمن ثَبُتَتْ عصمتُه عن الغلط في مثله، ولأن القراءة ثبتت متواترة، وما نقله النحويون آحاد، ثم لو سُلم أنه ليس بمتواتر فالقرَّاء أعدل وأثبت فكان الرجوع إليهم أولى.

وقال الفخر: " أنا شديد العجب من هؤلاء النحويين " ، إذا وجد أحدهم بيتًا من الشعر ولو كان قائله مجهولًا يجعله دليلًا على صحة القراءة ، وفرح به، ولو جعل ورود القراءة دليلًا على صحته كان أولى وقال صاحب الانتصاف : ليس المقصود تصحيح القراءة بالعربية، بل بتصحيح العربية بالقراءة، وعلى هذا المنوال نسج النيسابوري فقال" وعاب النحويون على حمزة أنه قرأ " وما أنتم بمصرخي"؛ لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف في نحو عصاي فما بالها وقبلها ياء، وحاصل ما عابوه عليه أنه لم يوجد له نظير في استعمال العرب لكنك تعلم أن القرآن حجة علي غيره"[٤٣] قال الأخفش وأبو حاتم عن قراءة حمزة بتشديد الياء مع كسرها: ليس ذلك من كلام العرب مع أن هذه القراءة علي لغة بني يربوع ذكرها الفراء في معاني القرآن.(٤٤)

ورأى النيسابوري في "الظنونا–الرسولا–السبيلا" لم يذكره في تفسير سورة الأحزاب، ولكن وجدنا في سورة الأعلى توجيهًا لبقاء الألف في قوله تعالي:" **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى** "[الأعلي:٦] حيث ضعف أن تكون لا ناهية ويكون حرف العلة في "تنسي" الألف مزيدًا من أجل الفاصلة مثل "الظنونا" و"السبيلا" وضعف بأن الزيادة خلاف الأصل، فلا يُصار إليها إلا لدليل ظاهر ومن كل ما سبق يظهر أن بقاء الألف في "ولا تخشى" في قراءة حمزة وكل من جزم هو على لغة عبس فلا مخالفة.

ويظهر مما سبق أن النيسابوري يرفض أن تكون الألف "الظنونا–السبيلا" ومثلها "الرسولا" لمجرد الفاصلة كما يرفض أن تكون الألف في آخر الفعل "تنسى" في قوله تعالي:" **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى** "[الأعلي:٦] زائدة الفاصلة إذا اعتبرنا "لا" ناهية.

ناقشنا فيما سبق مثالين على زيادة حرف في الفاصلة، والآن نناقش حذف حرف من الفاصلة وهو قوله تعالى:" **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** "[الفجر:٤]، وسبب حذف الياء في هذا الموضع احتار فيه كثير من العلماء حتى أن واحداً سأل الأخفش عن سبب حذف الياء هنا فطلب منه أن يخدمه سنة كاملة مقابل الإجابة فقال له "لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة". (٤٥)

وهذا ليس بكثير؛ فأنا أبحث عن سبب حذف الياء في "يسر" منذ أكثر من ثلاثين سنة، ولم أرض أن تكون الفاصلة فقط هي التي أدت لحذف الياء–جل كلام الله عن ذلك – خلافًا لما يراه الكثير من العلماء.

يقول د/تمام حسان ''الفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة معينة في القرآن الكريم، وهذه الوظيفة جمالية تستحق الرعاية ولو تعارضت رعايتها مع بعض أنماط التراكيب النحوية". (٤٦)

ومن أعجب العجب أن يذكر أستاذنا تمام حسان بعض آيات القرآن ويرى أنها خالفت الترتيب الأصلي للكلام ويرى أن بعضها خالف ترتيب الأحداث التاريخية من أجل رعاية الفاصلة، وأطلق على آيات القرآن–عفا الله عنه – ب "رتبة مشوشة" من أجل الفاصلة، ونقل أستاذنا د/شبايك أربعة أمثلة (٤٧) وهي:

رتبة أصلية	رتبة مشوشة من أجل الفاصلة
١. وينفقون مما رزقناهم	• " **وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ** "[البقرة:٣]
٢. وهم يوقنون بالآخرة	• " **وَبِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** " [البقرة:٤]
٣. وكانوا يظلمون أنفسهم	• " **وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** "[الأعراف:١٧٧]
٤. " **فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا**" النساء (مرة ٤٦، مرة ١٥٥)	• " **فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ** "[البقرة:٨٨]

وهناك أمثلة لم ينقلها أستاذنا د/ شبايك وهي قوله تعالى:" **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** "[النساء،١٦٤:١٦٣] حيث يري د/تمام أن الكلمات خالفت الترتيب التاريخي للأحداث وتم تشويش تتابع الأحداث لرعاية الفاصلة–جل كلام الله – يقول رحمه الله – عن الآيتين السابقتين،"فانظر كيف تقدم عيسى على سلفه، وتقدم سليمان على داود، وكيف تقدما معاً على موسى رعاية للفاصلة".(٤٨)

وذكر أمثلة أخرى بعضها ضمن المآخذ التي ذكرها ابن الصائغ، يقول تعالى:" **فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** "[البقرة:٨٧] فيرى أن الأصل ففريقا كذبتم وفريقا قتلتم، وكذلك قوله تعالى:" **قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ** "[النمل:٢٧] والأصل أن كذبت. وكذلك قوله تعالى:" **قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ** "[النمل:٤١] بدلًا من "أم لا تهتدي".

والباحث يرفض رفضًا تامًا إطلاق أو وصف آيات القرآن ب"رتبة مشوشة"، أولاً؛ لأن كلمة "مشوشة" غير موجودة في مقاييس اللغة ولا في أساس البلاغة، وفي لسان العرب يقول ابن منظور:" وأما التشويش فقال أبو منصور: إنه لا أصل له في العربية وأنه من كلام المولدين، وفي القاموس المحيط والتشويش والمشوش والتشوش كلها لحن ووهم الجوهري. (٤٩)

وفي مختار الصحاح" التشويش التخليط وتشوش عليه الأمر (٥٠)" وفي الوجيز شوشه خلطه وأساء ترتيبه"(٥١) فهل يرضى علماؤنا أن نصف كلام الله ب "مشوش" والتي من معانيها إساءة الترتيب والتخليط؟! لا أظن ذلك.

ثانيًا: قَصْر التعليل على رعاية الفاصلة غير مقبول للآتي:

١. في قوله تعالى:" **وَمِمَّا رَزَقْنٰهُم يُنفِقُونَ** "[البقرة:٣] تم تقديم " **وَمِمَّا رَزَقْنٰهُم** " على الفعل "ينفقون" لأن الرزق له مكانة عند الناس مع رعاية الفاصلة. يقول الطاهر ابن عاشور" وتقديم المجرور المعمول على عامله وهو "ينفقون" لمجرد الاهتمام بالرزق في عرف الناس فيكون في التقديم إيذان بأنهم ينفقون على ما للرزق من المعزة على النفس كقوله تعالي:" **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** "[الإنسان:٨] مع رعي فواصل الآيات على حرف النون(٥٢)" وكذلك في قوله تعالى:" **وَبِٱلْأٓخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ**"[البقرة:٤] تقديم المجرور" وبالآخرة" الذي هو معمول "يوقنون" على عامله وهو تقديم لمجرد الاهتمام مع رعاية الفاصلة، ويضيف ابن عاشور أن في هذا التقديم شيئًا آخر فيقول:"وأرى أن في هذا التقديم ثناء على هؤلاء بأنهم أيقنوا بأهم ما يوقن به المؤمن، فليس التقديم بمفيد حصرًا؛ إذ لا يستقيم معني الحصر هنا بأن يكون المعنى أنهم يوقنون بالآخرة دون غيرها. وقد تكلف صاحب الكشاف وشارحوه لإفادة الحصر في هذا التقديم، ويخرج الحصر عن تعلقه بذات المحصور فيه إلى تعلقه بأحواله وهذا غير معهود في الحصر". (٥٣)

وأما قوله تعالى:" " **وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** "[الأعراف:١٧٧] فقد وضح د/سعد عبد العظيم علة مجيئها على هذا الترتيب فقال:" وأما آية الأعراف فقد بدئت بقوله تعالى:" **سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** "[الأعراف:١٧٧] ؛ فلما لم يتقدم ما يناسب دفع توهم تعلق الظلم بأحد ناسبه عدم ذكر ما يتعلق بنفي الظلم عن الله أو غيره وعدم ذكر "لكن"، ولما كان السياق أكثر تعلقاً بالقوم، وكان التكذيب دالًا على المبالغة في الظلم حتى خالط كيانهم؛ ناسب ذلك ذكر"كانوا" وتقديم أنفسهم عليها بقوله: "وأنفسهم كانوا يظلمون".".(٥٤)

وأما قوله تعالى: " **فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ** "[البقرة:٨٨]، فقد عقد د/سعد مقارنة بينها وبين آيتي النساء:" **فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلً** "[النساء:١٥٥،٤٦] وانتهى إلى مناسبة كل واحدة للسورة التي وردت فيها فقال:"ولما كان السياق قائما على بيان كثرة من كفر بحيث كان من آمن قليلًا جدًا لا يكاد يذكر؛ ناسبه تأكيد القلة بذكر المفعول المطلق وتقديمه بقوله تعالى: " **فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ** "[البقرة:٨٨] مراعاة لذلك وللفاصلة النونية"[٥٥]

وكذلك كان قوله تعالى: " **فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلً** "[النساء:١٥٥،٤٦] مناسباً لمكانه في سورة النساء يقول د/سعد"في آية النساء" **فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلً** "[النساء:١٥٥،٤٦]،" **وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ** "[النساء:١٥٠] و دل ذلك على أن إيمانهم الذي زعموه قليل لا دوام له؛ ناسب ذلك قوله تعالى:" " **فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلً** "[النساء:١٥٥،٤٦] مراعاة لذلك وللفاصلة اللامية."[٥٦] ويظهر مما سبق أن الفاصلة لم تكن السبب الوحيد لمجيء كلمات الآيات السابقة على طريقتها، وإنما كان المعنى قبل اللفظ.

والموضع الآخر الذي رأى أستاذنا د/تمام حسان أن فيه مخالفة من أجل الفاصلة قوله تعالى" **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** "[النساء:١٦٣] فيرى أستاذنا أن ترتيب ذكر الرسل والأنبياء في الآيتين خالف الترتيب التاريخي فعيسى عليه السلام ذكر قبل موسى، وسليمان تقدم على داود، وتقدم سليمان وداود على موسى عليهم صلوات الله .

وقد أرجع أستاذنا كل ذلك من أجل الفاصلة، والباحث لا يتفق مع د/تمام لأسباب كثيرة منها أن كلام الله لا يخضع لضرورة ولا يقدم اللفظ على المعنى كما سبق توضيحه والتدليل عليه.

علاوة على أن تأخير "داود" كان لعلة وكذلك تقديم "عيسى" -عليه السلام- وليس من أجل الفاصلة فقط يقول الشوكاني:" وقدَّم عيسى على أيوب ومن بعده مع كونهم في زمان قبل زمانه رداً على اليهود الذين كفروا به، وأيضًا فالواو ليست إلا مطلق الجمع". [٥٧]

وأما عن سر البدء بنوح -عليه السلام-، والختام ب"داود" في الآية الأولى فنجده عند النيسابوري يقول:"ثم إنه سبحانه عاد إلى الجواب عن سؤال اليهود، وهو اقتراح نزول كتاب جملة واحدة فقال:"إنا أوحينا إليك" الآية فبدأ بذكر نوح -عليه السلام- لأنه أول من شرَّع الله علي لسانه الأحكام والحلال والحرام ثم قال "والنبيين من بعده" ثم خص بعض النبيين بالذكر لكونهم أفضل من غيرهم ولم يذكر فيهم موسى؛ لأن المقصود من تعداد هؤلاء الأنبياء أنهم كانوا رسلًا مع أن واحدًا منهم ما أوتي كتابا مثل التوراة دفعة واحدة، ثم ختم ذكر الأنبياء بقوله:"... **وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** " يعني أنكم اعترفتم أن الزبور من عند

الله، ثم إنه ما نزل على داود جملة واحدة، وهذا إلزام حسي قوي"[٥٨] وختام الآية بذكر داود -عليه السلام -منفردًا لتمييزه عند أهل الكتاب يقول صاحب حدائق الروح والريحان" وقد أُفرِدَ (يقصد داود) بالذكر؛ لأن له شأنًا عند أهل الكتاب من حسن الصوت واجتماع الطيور عليه"[٥٩]

ولم يذكر سيدنا موسى -عليه السلام- في هذه الآية؛ لأن الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة؛ فلهذا لم يذكر موسى عليه السلام.

وقد كشف البقاعي عن سر ترتيب ذكر الأنبياء في الآيتين فعلل البدء بنوح -عليه السلام-. والختام بموسى -عليه السلام- أن كليهما من أولي العزم واشتركا في أن الله أهلك من كذبهم كنفس واحدة بالإغراق. يقول البقاعي -رحمه الله-:" إنه تعالي بدأ المذكورين وختمهم باثنين من أولي العزم اشتركا في صفة أن كلًا منهما أُهلك من عانده كنفس واحدة بالإغراء (الصواب بالإغراق)؛ ترهيبًا لهؤلاء الملبسين على أهل الإسلام بالباطل المدعين أنهم أتباع." [٦٠]

واكتشف البقاعي لطيفة أخرى في الآية الأولى" إنا أوحينا" وهي أن المعروف بالكتب والصحف ثلاثة وهم إبراهيم-عيسى-داود، وكان ترتيب عيسى السادس في الذكر، وكذلك ترتيب داود السادس، وهو نفس العدد الذي خلق الله فيه السموات والأرض إشارة إلى أن الله لا يحب العجلة، فكما لم يعجل في خلق السموات والأرض، لم يعجل في إنزال الكتاب يقول رحمه الله:" ومن لطائف هذا الترتيب أن المخصوصين بالذكر في الآية الأولى" إنا أوحينا" أحد عشر أسماء (الصواب اسمًا). والمشهور بالكتب والصحف منهم ثلاثة "إبراهيم"، "عيسى" و"داود" وقد وقع كل منهم سادساً لصاحبه، وهو العدد الذي كان فيه الخلق فلعل ذلك إشارة إلي أن الله لا يحب العجلة فكما أنه لم يعجل في إنشاء الخلق فكذلك لم يعجل بإنزال الكتب التي بها قوامهم وبقاؤهم دفعة بل أنزلها منجمة"[٦١] ومن هنا يظهر التناسب بين هذه الآية الثانية والستين بعد المائة مع قوله تعالى:" **لم لى**"[النساء:١٦٣] ردًا وجوابًا على سؤال اليهود والذي سبق هذه الآية بعشر آيات فقال:" ثم إنه سبحانه وتعالى عاد إلي الجواب على سؤال اليهود وهو اقتراح نزول كتاب جملة فقال" **إنا أوحينا**"[٦٢] وهذا التناسب والترابط لاحظه النيسابوري كثيراً بين آيات القرآن وسوره حتى لو ظهر أن ثمة مخالفة للترتيب الزمني للآيات والذي رددنا عليه في سورة النساء" إنا أوحينا " [١٦٣] .

الهوامش:

١- الراغب الأصفهاني،مفردات الفاظ القرآن، ت صفوان داوودي دار القلم، دمشق، الدار الشامية ببيروت ط٢،مادة(ف،ص،ل)

٢- ابن منظور،لسان العرب، مادة(ف،ص،ل)
٣- مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الجيل، بيروت،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، مادة(ف،ص،ل)
٤- ياسر مصطفى، رسالة ماجستير التماسك البديعي في تفسير التحرير والتنوير لسورة البقرة، جامعة قناة السويس،٢٠١٧م
٥- وضعت الألف قبل "عاشور" في كلمة ابن لأن عاشور ليس أبًا مباشرًا
٦- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون،دار الجيل بيروت ط١، دب ج٤/١٨٤/١٨٥
٧- الزركشي، البرهان، ت أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ص ٥٠
٨- الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٩٩
٩- د/عيد شبايك، الفاصلة القرآنية، دار حراء القاهرة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ط١، ص ٧
١٠- د/سامي عبد العزيز، الوحدة السياقية للسورة، سلسلة الرسائل الجامعية الرياض،١٤٣٠هـ، ص٦٤٧
١١- د/عيد شبايك، الفاصلة القرآنية، ص٧
١٢- رينيه وليليك وأوستن وارين: نظرية الأدب ترجمة محي الدين صبحي بيروت د.ت، ص ٩٤
١٣- د/السيد خضير، فواصل الآيات القرآنية، مكتبة الآداب القاهرة ط٢(١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م) ص ٢١
١٤- د/عبد العظيم المطعني خصائص التعبير القرآني، مكتبة وهبة القاهرة ط ١ (١٤١٣-١٩٩٢) ص٢٣٨/٢٢٩
١٥- د/عبد العظيم المطعني خصائص التعبير القرآني، مكتبة وهبة القاهرة ط ١ (١٤١٣-١٩٩٢) ص٢٣٨/٢٢٩
١٦- السيوطي، الإتقان، نفسه ص٢٩٦
١٧- ينظر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الحديث القاهرة ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م ص٥٧
١٨- ينظر سامي عبد العزيز، الوحدة السياقية ص٦٤٩
١٩- ينظر البقاعي، نظم الدرر، دار الفاروق القاهرة، ط١، ١٤٤٣هـ – ٢٠٠م، ص٥٧:٥٩
٢٠- محمد أمين الهرري، حدائق الروح والريحان، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان،٢٦/١٤٥
٢١- البيضاوي، أنوار التنزيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م، ط١،٢/٥٥٣
٢٢- الزمخشري، الكشاف،٣/٤٨٦
٢٣- الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، ١٩٩٧، ٨/٢٨٢
٢٤- الزركشي، البرهان، ١/٦١

٢٥- الآلوسي، روح المعاني، ٢٠٥/١١
٢٦- البقاعي، نظم الدرر، ٣٠٢/١٥
٢٧- نفسه ٤١٨/١٥
٢٨- نفسه ٤١٩/١٥
٢٩- محمود شمس، برنامج في سحر البيان، محمود شمس، ملتقي أهل التفسير، http://vb.tafsir.net/tafsir32210، بتاريخ ١٦/ ١٠، ٢٠١٣
٣٠- عبد العظيم المطعني، لطائف وأسرار خصوصيات الرسم العثماني للمصحف الشريف، هدية مجلة الأزهر الشريف، ج٢، جمادى الأولى ١٤٤٠هـ/ يناير ٢٠١٩م، ١٨١: ١٨٢
٣١- د/فاضل السامرائي، لمسات بيانية،٥٣٩/١
٣٢- الفراء معاني القرآن٣٥٠/٢
٣٣- العكبري، التبيان في إعراب القرآن، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ١٢٥/٢
٣٤- النيسابوري، غرائب القرآن،٢٢٦٦/٣
٣٥- د/عيد شبابيك، الفاصلة القرآنية، ص ٢٠٣
٣٦- الآلوسي٧٥٩/٨
٣٧- الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢٧١٠٢٧٠/٧
٣٨- محمد الأمين الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان، ٣٦٦/١٧
٣٩- عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة،١٨٥/١
٤٠- أبو العباس القسطلاني، لطائف الإشارات،تحقيق عبدالرحيم الطرهوني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠١٣، ٣٢٢٣١/٣
٤١- يقصد القراء السبعة أو العشرة أصحاب القراءات المتواترة
٤٢- محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن القسم الأول دار الحديث القاهرة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢١:٣٣
٤٣- النيسابوري، غرائب القرآن، ١٩٢٤/٣
٤٤- محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ص ٢١: ٣٣
٤٥- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت،٤٤٢/١٠
٤٦- د/تمام حسان/البيان في روائع القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢/ص١٩٨،١٩٩
٤٧- د/عيد شبابيك، الفاصلة القرآنية، ص١٧٧
٤٨- تمام حسان، البيان في روائع القرآن،١٩٨/١،١٩٩

٤٩- ابن منظور، لسان العرب، مادة شوش
٥٠- مختار الصحاح، مادة شوش
٥١- المعجم الوجيز، مادة شوش
٥٢- ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، ١/ ٢٣٦
٥٣- نفسه،١/٢٤٠
٥٤- د/ سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، دار ابن الجوزي، القاهرة،١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، ط، ص١٠٨
٥٥- نفسه، ص ١٣١
٥٦- نفسه، ص١٣١
٥٧- الشوكاني، فتح القدير، دار ابي الجوزي، القاهرة،١٤٣٢هـ،٢٠١٢م، ط١، ص٩١٩
٥٨- النيسابوري، غرائب القرآن.١٠٧٩/٢
٥٩- الهراري، حدائق الروح والريحان،٤٦/٧
٦٠- البقاعي، نظم الدرر، مج ٥، ص ٥١٢
٦١- نفسه، ص ٥١٢
٦٢- النيسابوري، غرائب القرآن،١٠٧٩/٢